من أساطير الإغريق

مصرع بروكريس

للأستاذ دريني خشبه

رأته أوروورا حينما كان الصبح يتنفس أنفاسه الندية العطرية يثب فوق الجبال ويصيد الوحوش بين الأدغال، فهامت به، ووقفت تعبده، وتروى من جماله، وتسقى نفسها الصادية أبداً إلى كل ريان مفتان... وحاولت أن تكلمه فشاح بوجهه، وتصدت له فأعرض عنها، ثم انطلق فى أثر ظبي فلم يزل به حتى أرداه وانحنى يحمله... ولكنه وجد مكانه أوروورا ...! وجدها متجردة تُمرِّغ جمالها تحت قدميه، فنفر نفرة جرح بها كبرياء ربة الفجر الوردية، وجعلها ترمقه بعينى أفعى، تود لو تنفث في صدره سمها فترديه

« أنا أوروورا، ربة الفجر والندى، حبيبة الزنبق والبنفسج والورد، لا أروق هذا الأنسىَّ المخلوق من تراب!! وحق أبى لآسرنه ولأسجننه، ولأجعلنه يتلوى تحت قدمى، ويبكى من أجل قبلة أمن بها عليه! »

وأرسلت رُقية من رُقاها الساحرة فنشرت الظلام على عينيه والنسيان في قلبه، وبات لا يملك لنفسه حلاً ولا عقداً... ثم حملته إلى كناسها[1] فى شعاف الأولب، وحبسته ثمة، وأذهبت عنه طائف السحر فأدرك ووعى، وهب مذعوراً، ثم غرق فى شىء كالحلم لما رأى العماد من ذهب، والطنافس من عجب، والكأس حفها الحبب، والنَّداى والطرب، وكل راقصة كالخيال يراقصها أمرد كالطيف، فتميل وتختال، ويتأوّد كالسيف... وأوروورا مع هذا وذاك تدل وتتبرج، وتفوح وتتأرج، كأنها ربيع بأكمله، زخرف الدنيا بالزهر، ووشاها بالروض، وابتعث فيها المرح والحياة

— أين أنت إذن؟ سيفال! أين أنت؟

— أين أنا؟

— ألا تعرف؟ هذه غُرُفات الأولب!

— الأولب؟!

— أجل... أولب أربابك

— محال! لن يكون الأولب هكذا!

— وله؟

— لأن الأولب مأوى الصالحين! أليس الآلهة أجدر منا بالتقوى؟ ما هذا؟ أخمر ورقص وطرب... وفسق فى الأولب؟ لا... ليس هذا الأولب... لن يكون الأولب هكذا!!

— بل هو الأولب يا سيفال! وليس ما ترى هنا إلا قليلا

(١) الكناس بالكسر بيت الظبي

أعرف حر الأشيا وباردها وآخذ الماء من مجاريه

فأجابه أبو الحسين الجزار:

حسنُ التأتى مما يعين على رزق الفتى والحظوظ تختلف[1]

والعبد مذ صار فى جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف

وفى (كتاب المغرب في حلى المغرب): حضر الجزار بين يدى الصاحب الكبير كمال الدين بن أبى جرادة مودعاً وقد أزف رحيل الصاحب عن مصر سنة (٦٤٥) فاتفق أن وجه سلطان مصر شيئاً من التمر الذى يصل من أعلى الصعيد فى المركب المبشر بزيادة النيل على وجه البَرَكة، فأمر الصاحب أن يقدم فأكل الجزار فى جلتهم، وقال فى ذلك ارتجالاً فأتى بأبدع تورية.

أطعمتنا التمر الذى للبركات قد حوى

لله ما أطيبه! لو لم تشبه بالنوى

« الاسكندرية » (***)

(١) تأتى للأمر: ترفق له

مما هناك ! هل ترى ڤينوس ؟ أتم تصل لها ؟ أنظر من هذه الكوة فهى تطل على حديقتها !

— وأنا ما شأنى ؟ أريد أن أذهب !

— تذهب ؟ تذهب إلى أين يا سيفال ؟ لن تبرح ها كفاً على اللهو الذي ترى !

— لا ، لن يقوي الأولمب كله على قهرى !

— ها . ها ... مضحك ... أنت مضحك يا سيفال ! كل الأولمب ؟

— أؤكد لك !

— ولِمَهْ ؟

— لأنى أحب زوجتى وأقدسها ... إنها جميلة جدا

— أجمل من أوروررا ؟ ! أليس كذلك ؟

— أجمل من أوروررا لدى كل من ينظر بعينى زوج أمين مخلص !

— أنت عنيد يا سيفال ! إنك تزدرينى !

— بل أنا أنتصر للفضيلة التى كان ينبغي أن تتنزل علينا من الأولمب ! من جاء بى هنا ؟

— أنا ...

— ولماذا ؟

— أنت تعرف !

— لا أعرف شيئاً ... والذى أعرفه لايليق بشرف ربة ! أرجو أن تطلق سراحى !

— إذن أنت تفضل علىّ زوجتك ! أهي أجمل منى ؟ ألا تزال تعتقد هذا يا سيفال ؟

— أنا أُفضل زوجتى لأنها لم تَتلوّث ... ولا زلت أقول إنها أجمل منك لأنني أنظر إليها بعينىّ لا بعينيك !

— زوجتك أجمل من ربة الفجر الوردية ؟

— أجمل من ربات الأولمب جميعاً ، إلا من تجملن بمثل روحها ، ولست منهن !

— أيها التعس !

— ولم أكون تعساً وأنا أسعد الناس بزوجتي بروكريس!

— بروكريس! ها ! عرفتها ! إحدى وصيفات ديانا ! حقيرة مثلك ! أغرب من وجهى أيها القذر ! إذهب ! إذهب إلى زوجتك بروكريس التى تفضلها على أوروررا ؛ ستندمى يوماً أنك لم تعرفها ، وأنها لم تكن زوجتك ... إذهب ... إذهب ! »

* * *

وبلغ بيته وهو يلهث من التعب ، ويرتجف مما ألم به ، فلقيته زوجته الجميلة الحسّان بابتسامة شفت صدره ، وقبلة ذات حُميّا أذهبت بعض ما وجد ... إلا أنه كان ينتفض آنة بعد آنة ، ويعود فيبتسم ، ثم تغرورق عيناه بدموع نقية كاللؤلؤ كلما نظر إلى زوجته ، حتى هجس وسواس فى قلب بروكريس فقالت له :

— ماذا يا سيفال ؟ أتخفى عنى ذات صدرك ؟

— كلا ، ولكنها أوروررا ...

— ماذا ؟ ماذا صنعت بك ربة الفجر ؟

كانت تحاول أن تسحرني عنك ... أو ... تَشرَكنى فيك على الأقل ؟ !

— ... ؟ ...

ولكنها فشلت ... لقد أذللت كبرياءها

— وهل استطعت ؟ إنها جميلة وصناع ، ولها فى الغزل الصارخ أساليب خارقة يا سيفال ...

— لقد قهرتها وأساليبها ... إن قطرة من معين إخلاص تطفئ لظى جحيم يا بروكريس !

— لاريب يا حبيبي ... أنا أمزح فقط ... سيفال ، عندى لك مفاجأة طيبة

— مفاجأة ! أية مفاجأة يا بروكريس ؟

— تعال ... افتح هذه الغرفة

— أوه ! ماهذا ... كلب عظيم ، من أين يا بروكريس ؟ إنه سينفعنى كثيراً فى صيدى

— ومفاجأة أخرى أعظم ! أنظر فى ركن الغرفة !

— هه ! حربة ! لم أر قط مثل هذه الحربة ! إنها ليست من صنع بشر ! آه ! إنها من صنع ڤلكان لاشك ! البشر لايجيدون أن يصنعوا مثل هذه !

— إحزر إذن ممن الهديتان ؟

— من الملك !

— وأنى لي أن يهدى الملك إليّ ؟

— ممن إذن ؟

— إحزر !

— لا أدري !

— إنهما من ديانا يا سيفال ! أهدتهما إلى هذا الصباح !

— من ديانا ؟ آه ! لقد ذكرت ذلك أوروررا

ماذا ذكرت لك أوروررا ؟

— أنك كنت إحدى وصيفاتها !

— وأى ضير علىّ أو عليك فى هذا ؟ أليست هي إحدى تابعات أبوللو ؟ لقد كانت وما تزال تتمنى أن لو كانت إحدى وصيفات ربة القمر !

— لا ضير ، لا ضير يا بروكريس

— إنى أهب لك ما أهدت ديانا إلى !

— أشكرك !

— الكلب لا تسبقه الريح ، والحربة لا تخطئ الغرض

* * *

وظل سيفال يعود أصيل كل يوم إلى زوجته مثقلاً بشتى أنواع الصيد ؛ وأحب كلبه وحربته حباً لا يعدله إلا حبه بروكريس

واشتهر أمر الكلب فى الإقليم كله ، وذاع صيته ، حتى لقد أخطأ بعض افراد الشعب فى حق بعض الآلهة ، فسلط عليهم ثعلباً سِلْقاً [1] لم يستطيعوا مكافحته ، ولم تغو كلابهم له على طراد ، فاجتاح ماشيتهم ، وأتى على دجاجهم ، وعاث فى حقولهم ، ونفش في زروعهم ؛ ولم يدروا كيف خلاصهم منه ، حتى سمعوا بكلب سيفال فرجوه فيه ، كيما يطلقه فى أثر الثعلب فيريحهم من شره ... وانطلق ليلاب — وهذا هو اسم الكلب — وراء الثعلب ، كما يمرق السهم عن القوس ، أو كما تمرق النظرة الخاطفة عن العين النجلاء ؛ وما انفك يحاوره ويداوره ، وينبح به فيزلزله ، حتى همّ أن يفتك به ويمزقه إرباً ... ولكن حدث أن كانت الآلهة تطلع من خلال الاولمب ، تتفرج بهذا الطراد ، وتشرح صدورها بمرآه ، فالتفت بعضها إلى بعض ، وعز عليها أن يقتل كلب إلهىّ ثعلباً إلهيًّا أمام الملأ من الناس ، ففضوا لِتوّهم أن ينقلب الاثنان فيكونا تمثالين من المرمر الناصع ، فهما كذلك إلى اليوم ! !

وأسف سيفال على كلبه ، وانقلب على عقبيه غضبان صمقا ... ولم يزل فى كل يوم ، وفى مثل تلك الساعة التى حاقت بكلبه العزيز هذه النازلة ، يتوجه إليه ، ويقف قليلاً عنده ، حانًّا لذكراه ، آنًّا على ما حل به ، ثم ينطلق بعد ، وفي يده رمح ديانا ، فيصيد الظباء وليس معه ليلاب

وانطلق مرة فى إثر ظبى فأنهك قواه ، ونال منه الإعياء ، وانسدح على العشب الأخضر فى فَيْء دوحة باسقة ، ثم راح يتخلّج [2] من شدة التعب ؛ وكان الوقت ظهراً ، وكان القيظ قد أجج الدنيا حوله ، فتفصد [1] العرق من جسمه المنهوك ، وتراخت عضلاته ووهنت روحه ، وأنشأ يردد كلاماً كالأغنية يرسله هكذا :

أين أنت يا نسمة ؟ يا ابنة الربيع اللعوب
يامنعشة الروح المتعبة ، أين أنت ؟
هلمى يا نسْمة ، هلمى إلى سيفال ،
فهو مشوق إليك ، يرجو لو تنفسين عنه ؛
هلمى يا نسمة ففرجى عن سيفال المضنى ،
وهبى على رأسه اللهب ، وصدره الكروب ؛
لقد كنت يانسمة ، يا أحلى قُبَل الحياة ،
تداعبين جبينى ، وتنعشين نفسى ،
فماذا حال بينك وبينى ، يا نسمة الربيع ،
وساقية الحب ، ورسول المحبين ...

وكانت أوروورا ما تفتأ تتعقب سيفال فى كل فج ، وترقبه فى كل حنيّة ؛ وكانت تقف فى صورة بابل فوق رأسه ، مختبئة فى أفنان الدوحة التى نام فى ظلها ؛ فلما سمعته يتغنى غناءه ، ضحكت واستبشرت ، وانتهزتها فرصة نادرة للايقاع بينه وبين زوجته ، وانطلقت من فورها إلى بروكريس ، حيث تكشّفت لها فى صورة إحدى صويحباتها :

— بروكريس !

— مرحباً بأعز الحبيبات ، ماذا جاء بك فى هذا القيظ ؟

— نبأ أسود ما كنت أوثر أن أحضر إليك به !

— نبأ اسود ؟ يالهول ! ماذا ؟

— أرجو ألا أثير سخطك على ...

— كلا ... كلا ... عجّلى أرجوك !

— سيفال !

— ماله ؟

— أتذكرين يوم رويتِ لى ما كان من أمره مع أوروورا ؟

— لم أنس ! ولكن مال سيفال ؟

— يبدو لى أنى لم أكن مصيبة فى تبرئته ! لقد نفيت شكوكك فيم ذهبت إليه من الميل إلى ربة الفجر ، وقلاه لك لما عرف أنك كنت وصيفة ديانا !

— وماذا حدث بربك ؟

— إنه يحب فتاة اخرى اسمها نَسْمة ! إنه مولع بها أشد الولوع !

(١) السلق : الذئب واستعمل هنا صفة

(٢) يشكو من التعب ويضطرب

(١) جرى وتصبب

— لا أصدق !

— لاتصدقين ؟ وهل أنا كاذبة ؟

— وكيف عرفتِ ؟ هل أوحىَ إليك ؟

— بل سمعته يهتف باسمها ، ويشدو بحبها ، ويتغنى أحر الغناء !

— لا أصدق ، لا أصدق ، سيفال لايحب واحدةً سواى !

— هل لك فى أن تسمعي غناءه بأذنيك ياصديقتى !

— وأين هو ؟

— قريب من الدَّغل الذى عند النبع ... سأحضر لك حصاناً صافناً

وغابت أورورا ، ولم تلبث طويلاً ، بل عادت بعد هنيهة ومعها حصانان مطهمان ، وركبتاهما وأسرعتا إلى الدغل ... وكان فؤاد بروكريس يخفق كالعاصفة ، وكان وجهها قد شحب وامتقع حتى صار كالليمونة ، وكانت ألف فكرة تزحم رأسها وتثور فيه كالبركان ، وكانت ما تنفك تحدث نفسها بالهواجس فتقول : « نسمة ؟ ترى ما نسمة هذه ؟ عروس من عرائس البحر ؟ أم غادة من غيد السوق ؟ أم ربة كأورورا من ربات الأولمب ؟ أهى جميلة ؟ أهي أجمل منى ؟ ألها عينان كعينى ؟ ألها روح تستطيع أن تمتزج بروح سيفال بقدر ما امتزجت به روحى ؟ أهكذا ياسيفال ؟ لقد غلبت اليقين على الشك يوم أن ذكرت لى أمر أورورا معك ، فلم تعد الشكوك لتفترسنى ؟ يا ترى ؟ ألست تعود إلىّ أصيل هذا اليوم مثقلاً بصيدك كسابق دأبك ؟ حنانيك يا آلهة السماء ! » فكانت زفراتها لا تخفى على أورورا ، فكانت هذه تسليها وتواسيها

واقتربا من الدوحة التي نام تحتها سيفال وراح يغنى ... وأشارت أورورا إلى الزوجة البائسة فاختبأت فى الحشائش الطويلة القريبة من سيفال ، بعد أن تركت جوادها بعيداً من المكان ... وهناك أنصتت بكل سمعها وقلبها ، فسمعت زوجها ما يزال يتغنى باسم نسمة ويقول :

يا نسمة إلامَ أهتف بك يا نسمة !
يا نسمة يا أحب شيء فى هذا الحرور !
تعالى قبّلى خدّىَ ووجنتىَ وجبينى !
كم أنا مشتاق إلى نسمة يا سماء !
فابعثيها رَخيةً ندية ، عليلةً بليلة !
تنعش فؤادى وتثلجْ برفيفها صدرى

وكان ماخاف بروكريس أن يكون ! فها هو ذا سيفال يهتف باسم حبيبته نسمة ويتغنى ، ويتمنى لو جاءته تقبل خديه ووجنتيه ؛ وهاهو ذا يضرع إلى السماء أن ترسلها إليه رخيةً ندية تشرح الصدر وتثلج الفؤاد ... فماذا بعد هذا ؟ وأى برهان وقد سمعت الأذنان ؟ « إذن ، لقد كذب علىّ فى الأولى ، ولن يكذب علىّ فى الثانية ... إذن لقد صبا فؤاده إلى أورورا ، وما يزال فؤاده يصبو إلى الغانيات من كل جنس وفى كل فج ... آه للنساء الضعيفات من الرجال الأقوياء ... ويلى عليك ياسيفال ... ويلى عليك وألف ويل !

وعاثت الوساوس فى صدرها ، وانقلبت أضواء الظهر الساطعة ظلاماً داجياً في عينيها الحزينتين ، فأرسلت آهةً عميقةً قطعت بها على سيفال غناءه ، فهب الفتى مذهولاً مروّعاً ، وحسب أن وحشاً يتربص به فى الحشيش ، فجمع قوته ، وتناول حربته — حربة ديانا التي لاتخطىء — وأطلقها إلى المكان الذى صدرت منه الهمهمة ، وذهبت الحربة لتستقر فى صدر بروكريس!!

وا أسفاه !

لقد جرى سيفال ليرى هذا الصيد الجديد ، فماذا رأى ؟

— بروكريس ؟ ؟ يا للهول ؟ أهو أنت ؟

— ... ؟ ...

— وماذا جاء بك الساعة يا حبيبتي ؟

— لا ... شيء ... فقط ... لاتتزوج ... نسمة ، من بعدي!

— نسمة ؟ أوه ! إنها لا شيء ... لقد كان الجو متأججا من الحر يا حبيبتى ... وكنت أتمنى أن تهب علىّ نسمة من الريح تروح على ! ...

— أحق ... هذا ؟ ...

— هذا هو الحق وحبك يا بروكريس

— إذن ... سلام ... عليك

— بروكريس ! بروكريس ! لا ! لا تغمضى عينيك دونى ! إفتحيها لسيفال !

* * *

ولكنها ماتت ... وماتت بيد زوجها وحبيبها الأمين الوفى! وودعت الحياة وليس فى قلبها أثارة واحدة من الشك فى حبه وإخلاصه ...

وأرسل الفتى أنينه في الآفاق ، ورفع وجهه ليقلبه فى السماء بالشكوى ، ولكنه رأى ... أورورا .. واقفة تبتسم وتضحك.. فجن جنونه ... وانطلق هائما على وجهه ، لا يلوى على شيء ، ولا ترقأ له دموع ... حتى مات !

دميني فهمية